وزارة الثقافة والاعلام

سلسلة كتب الثقافة المقارنة

الاستشراق

٤



العنوان: اعظمية ـ بغداد ـ العراق ص.ب. ٤٠٣٢ . تلكس: ٢١٤١٣٥ . هاتف: ٤٤٣٦٠٤٤

كافة المراسلات تعنون باسم السيد رئيس التحرير



دار الشؤون الثقافية العامة

بغداد ـ ١٩٩٠

الاستشراق

محتويات العدد

تصميم سلسبيل ناجي شاكر

٤

شباط ١٩٩٠

الدكتور حكمت عبدالمجيد علاوي

كلية اللغات ـ جامعة بغداد

تأثير اللغة العربية في اللغة الاسبانية

وأثرها على الحركة الفكرية في الاندلس

المقدمة:

يتناول بحثنا هذا عرضاً مختصراً لاهم عوامل ازدهار الحركة الفكرية في الاندلس بعد ان انتشر الاسلام في جميع الاصقاع المغربية ، ودعا سكانها الى تعلم لغة القرآن الكريم وإقبال الناس عليها . ولما تمت حركة التحرير والفتوحات العربية الاسلامية ، واصبح العرب حكام تلك الاصقاع من الأرض التي فتحوها، اقبل الداخلون في الاسلام من غير العرب على تعلم اللغة العربية . وبفضل التحرير دخلت امم وشعوب كثيرة في الاسلام وتعربت ، وقد نتج عن ذلك التقاء ثقافات مختلفة، واصبحت اللغة العربية لغة العلوم والاداب والفلسفة ولغة الحضارة العالمية في العصور الوسطى، وذلك لغنى مفرداتها وقابليتها على النمو والتطور والاستجابة لحاجات الحياة.

واختلط العرب بالأمم الاخرى ، حاملين معهم تلك الحضارة العريقة، واقاموا الدولة العربية الاسلامية التي امتدت حدودها الى الصين واقاموا شرقاً والاندلس والمحيط الاطلسي غرباً .

وقد رافق ذلك تشييد صرح حضارة عربية اسلامية زاهرة كان لها الدور العظيم في شبه الجزيرة الايبيرية .

وحَمل العرب الى الاندلسيين لغتهم فاخذت تنتشر حتى تغلبت على لغة البلاد الأصلية واصبحت اللغة الرسمية ، ولغة الترقي والحضارة .

وفي نحو ٩٢هـ/٧١١ للميلاد، اندفع العرب في موجة فتوحاتهم ، تستهويهم بلاد طالما استهوت غيرهم من قبلهم، بلاد تقع في الجنوب الغربي من القارة الاوربية، وقد سميت بالامس الاندلس ، وهي اليوم تسمى اسبانيا .

وكان العامل الاول في بناء تلك الحضارة الزاخرة في الاندلس هو:

١) شغف اهل الاندلس باللغة العربية:

بعد ان حمل العرب لغتهم الى الاندلس ، وبعد ان هدات اضطرابات الفتح، راح الاندلسيون ينقلون العلوم وينشرون المعارف ، وقد وفدت جماهير العلماء من الشرق واشتدت العناية بالعلم والتعليم ، وقامت في كل مدينة اندلسية مدرسة ، وكان في قرطبة وحدها ثمانون مدرسة ، تنشر الثقافة العربية، وراح الاندلسيون يهتمون بجمع الكتب، وانشاء المكتبات ، وقد جمعت الخزانة الملكية في قرطبة وحدها نحواً من اربعمائة الف مجلد[1] وإن اللغة العربية قد ظلت لعدة قرون ، وفي النصف الثاني من العصر الوسيط ، لغة الحضارة السائدة في العالم ، ولاعجب ان نسمع (البارو ـ ALvaro) القوطي ، وهو من الغطاب الثائرين على المسلمين في القرن التاسع الميلادي، يستنكر انصراف الأسبان عن لغتهم، ويندد بشغفهم باللغة العربية وآدابها... ويتالم لانه لايكاد يجد بين كل الف شخص شخصاً منهم ، واحداً يستطيع ان يكتب باللاتينية خطاباً الى صديق له[2] .

وبهذا لقد نشا المجتمع الاندلسي محباً للعلم ، والرغبة في التحصيل والأخذ باسبابه والغوص في اعماق اللغة العربية وآدابها، ويسعى الى الظفر في المزيد من الثقافة العربية ولاسيما بعد ما رأى ملاءمتها لازدهار الفكر وتطوره.

٢) تاثير اللسان العربي في اللغة الاسبانية:

لاريب في أن اثر اللسان العربي في اللغة الاسبانية من اهم آثارنا العربية واكثرها خلوداً، كما انه دليل قاطع على ان الحضارة العربية الاسلامية وجدت في الاندلس ، الارض الخصبة لازدهار اغراسها .. وقد كان اللسان العربي خير اداة للتعبير عن تلك الحضارة خلال تسعة قرون تقريباً . ومن الثابت ان الاثر العربي في بعض مناطق الاندلس قد استمر حتى مطلع القرن السابع عشر وذلك لان قرابة نصف مليون عربي اختاروا البقاء في اسبانيا بعد ان استرجعها الملوك الاسبان لشدة تعلقهم بها وبارضها جيلاً بعد جيل ، وقد عُرف هؤلاء القوم باسم (الموريسكيين Moriscos)، وظلوا يتكلمون العربية ويكتبونها حتى تم اندماج بعضهم بالاسبان نهائياً لغةً وديناً . فالموريسكيون ، هم العرب الذين تنصروا بعد ان استرجع ملوك الاسبان الاندلس من يد المسلمين العرب ، اما الذين لم يتنصروا وآثروا البقاء في الاندلس فقد اضطروا للموافقة على ان يكونوا تابعين لملوك الكاثوليك الذين اطلق عليهم تسمية (المدجنين Mudejares) الذي نشا عنهم عند بقائهم في اسبانيا ، فن جديد في الهندسة والمعمار والصناعة اليدوية[٣] .

وقبل التحدث عن اثر الموريسكيين والمدجّنين في اللغة الاسبانية في مختلف بقاع الاندلس ، لابد لنا من التحدث عن المستعربين Mozarabes، وهم ابناء البلاد الذين تاثروا بالثقافة العربية والحضارة الاسلامية ابان الحكم العربي في اسبانيا ، ولقد حافظ هؤلاء على معتقداتهم الدينية غير انهم تعلموا العربية ومارسوها الى جانب لغتهم الاصلية المشتقة من اللغة اللاتينية والتي كانت تُعرف بالرومانسية ، وهي نواة اللغة الاسبانية . وكما هو معروف بان الحكم العربي في الاندلس قد توطدت دعائمه إثر حُكم القوط الغربيين ـ Visigodos) وهم قومٌ من القبائل الجرمانية احتلوا اسبانيا في القرن الخامس الميلادي ، قدِموا من ايطاليا وفرنسا، واتخذوا لغة الرومان الدارجة فيها لغة لهم ، وقد اضافوا الى تلك اللغة اللاتينية الدارجة بعض مفرداتهم واسمائهم . وكان حصيلة ماقدموه الى اللغة الاسبانية لايُقارن بما قدمّه العرب الى اللغة المذكورة من المعاني والمفردات والمصطلحات العلمية والفنية والادبية ، وقد تجاوز الاربعة آلاف كلمة من الكلمات العربية الاصل قد ادخلت الى الاسبانية ـ اللاتينية[٤] .

ويذكر العالم الاسباني رافائيل لابيسا في كتابه ـ تاريخ اللغة الاسبانية ـ إن التاثير العربي على اللغة الاسبانية ياتي مباشرة بعد العامل اللاتيني ، ونحن نرى فيها اليوم عدداً كبيراً من المفردات التي تبدا بال التعريف وهذا مايرشدنا في احيان كثيرة الى اصلها العربي[٥] .

اورد هنا بعض الامثلة على هذه المفردات:

اللوز:Aloza اللوز الاخضر.

اللوبية : ALubia ـ وتطلق على الفاصوليا

الطبق: Altabque ـ سلّة من الصفصاف او الاناء الذي يؤكل فيه .

الطائر: Altar ـ (فلك) نجم ـ النسر الطائر

الديباج: Altibajo ـ ضرب من النسيج يشبه الخميلة

الترمس: Altramuz ـ (بضم التاء) جنس من النباتات الزراعيه .

القطارة: Alquitara ـ (بفتح القاف وتسكين الطاء او كسرها) عصارة شجر الارز تطبخ ثم تطلى بها الابل، وفي التنزيل العزيز (سرابيلهم من قطران) لانه شديد الاشتعال ومادة سوداء سائلة لزجة تستخرج من الخشب والفحم ونحوها بالتقطير الجاف من التسوّس ، والحديد من الصدا (الوسيط) وانها من العربية من قطر اي سائل قطرة قطرة.

المرابط : Almoravid ـ قبيلة من مغاربة الاطلس الذين استنجد بهم امراء الطوائف يومئذ في الاندلس على الاستعانة بهم لانقاذ طليطلة التي كانت اول قاعدة اسلامية عظيمة تسقط في يد اسبانيا النصرانية[٦] .

وهناك الكثير من هذه المصطلحات العربية الاصل في اللغة الاسبانية واللاتينية على السواء:

الزعفران : جنس نباتات بصلية معمرة Azafaran —

القطن: Algodon

كاسة (فنجان) ـ طاسة : Taza

الرُز ـ رز وارز ـ في اليونانية oryza ـ لفظة صينية: Arroz .

السُد : دولاب يدار فيرفع الماء ـ Azud — Azuda

السطح: Azotea

مُدّ : (كيل قديم) ـ Almud

الكيمياء : Alquimia

الجزيرة : ALgeciras

المخدّة (الوسادة) : ALmohada

(بوسة): قبله – فارسي معرّب (الوسيط) – Beso

(حَبْل) – الحبل : مافُتل من ليف ونحوه ليُربط – Cable او يُقاد به . (الوسيط). قال تعالى :

«وامرأته حمالة الحطب . في جيدها حبل من مسد» .

(سورة المسد آيتان (٤ ، ٥).

(قلم): قصبة . قلم : القلم : اليراعة يكتب Calamo بها . ولا يُسمى قلماً إلّا بعد البري، ويسمى قبله قصبة ويراعة . (المنجد) . قلم في اليونانية Calamus معناه قصبة ، المعاجم الفرنسية : من اللاتينية Calamus قصبة .

قال تعالى: «اقرا وربك الاكرم . الذي علم بالقلم» – سورة العلق ، آيتان ٣،٤.

هذا وان الكثير منها بقي على حاله الاصلي كتابةً ولفظاً ، مع انه حافظ على معناه الاصيل لما اصاب تلك المفردات العربية الاصل ، سواء منها المبتدئة بال التعريف ام غيرها من تحريف لدى دخولها الى اللغة الاسبانية . والسبب في ذلك التحريف منطقي وواضح لما يوجد من فوارق شاسعة بين الحروف العربية والحروف اللاتينية ، وبين نبرة العربية والنبرة اللاتينية واسلوب لفظها ، وبين ذوق الأذن الاسبانية وذوق الأذن العربية . فكل قوم في لغاتهم مالفوا وماتوارثوا ، لذا اختلفت وسائل التعبير واللهجات واللغات ، وكان لابد للاسبان من سكب المفردات العربية ، واسماء الاعلام والمواقع الجغرافية ، والمدن التي اطلق عليها العرب اسماء عربية في قالب سماعي يتناسب مع ذوقهم من جهة ومع امكانات لغتهم الاصلية واحرف هجائهم من جهة ثانية.

فنحن نجد ان كلمة الساقية قد اصبحت Acequia (آثيكيا) والقاضي (Alcalde) (الكالذ)، والمعصرة (Almazara) (الماثار)، والضيعة (ALdea) (آلديا) ، وذلك لعدم وجود كل من حرف القاف، والعين، والغين، والحاء والضاد بالابجدية اللاتينية[٧] . مما يلاحظ كذلك ان اسماء العربية والمفردات المسكنّة في آخرها تتفق والذوق الاسباني فتحرك آخرها لدى اقتباسها باحرف صوتية[٨] .

المولدون Muladies: عُرف الاسبان الذين اسلموا إبّان الحكم العربي باسم المولّدين .

وكذلك حرّف الاسبان اسماء المدن والقرى والقلاع التي شيدها العرب في الاندلس وفي شبه الجزيرة الايبيرية التي تشتمل على اسبانيا والبرتغال . كما اصاب التمزيق اسماء بعض الأنهر والمواقع الجغرافية التي اطلق عليها اسلافنا اسماء عربية ، فمثلاً مدينة مجريط تحولت الى مدريد وهي عاصمة اسبانيا اليوم ، وكثيراً من المواقع الجغرافية الاخرى ، وهذا مايجعلنا نتوقف عند المرور بمثل هذه المفردات العربية الاصل مستغربين اشد الاستغراب عما لحق بها من تحريف[٩] .

كما ان هذا التمزيق في الاسماء قد لحق باغلبية المفردات العربية الاصل لدى اندماجها باللغة الاسبانية وكذلك الاسماء الاسبانية لدى نقلها الى العربية، كاسماء الاعلام والمدن والمقاطعات والمواقع الجغرافية في شبه الجزيرة الايبيرية وفي جزائرها الشرقية . فقد تعارف أسلافنا على تسمية بعضها بما يتفق وذوقهم السمعي واللغوي ، فقد اطلقوا اسم طليطلة على المدينة (Toledo) (توليدو) واسم ملقا الى (Malaga) لأستحالة نطقهم لحرف القاف العربية وكذلك في غرناطة ولفظها Granada لاستحالة لفظهم حرف الغين العربية وتحولت اشبيليا الى سيفيّا (Sevilla) وهي اشتقاق من الاسم اللاتيني لها (Hispalis) وكذلك قرطبة الى كوردوبا (Cordoba) لاستحالة لفظهم الطاء : وهي اسم القرية الرومانية القديمة التي توسعت بعد الفتح العربي. واصبحت عاصمة مُلك الامويين في الاندلس .

والامثلة في هذا الصدد كثيرة جداً تلقي الضوء على حقائق تاريخية مهمة ، ولعل جانب الاشتقاق اللغوي الذي جرى عليه الاسبان لدى تبني المفردات العربية ، من اهم جوانب هذا البحث . فكما جرى العرب على اقتباس جزء من اسماء المدن القديمة حين تسمية مجريط مثلاً ، حيث انهم شيّدوها واعطوها اسماً مركباً من كلمة (مجري) لوفرة مجاري المياه فيها ومن المقطع اللاتيني إيت (IT) فاصبحت مجريط وكذلك لاستحالة لفظ حرف الطاء عند الغربيين قُلبت الى إيت (it) ثم تحورت الى مدريد (Madrid) بدلاً من مجريط ، وهكذا بالنسبة للمدن والمواقع الاخرى[١٠].

وبهذا تمتد غزارة العلوم العربية في مختلف جوانب

الاندلس وانتشار هذه اللغة في انحاء شبه الجزيرة الايبيرية .

الجانب الادبي في الاندلس:

ثمة تقدير في هذا الجانب ، هو ما اصاب اسبانيا المسلمة من النصيب الكبير غير المشكوك فيه في الجهد الموسوعي الهائل الذي يتالف منه الادب العربي ، سواء اكان ذلك في مجال العلوم الدينية أم في العلوم اللغوية وتستطيع الاندلس ان تحتل بحق مكانة الصدارة بين اقطار العالم الاسلامي الاخرى ، وماعلينا لكي نتحقق من صحة ذلك إلّا ان نقلّب صفحات فهارس الاعلام المؤلفين ، كفهرس التركي حاجي خليفة او فهرس بروكلمان ، باعتباره اقرب الينا. وكذلك فان فقه اللغة العربية قد ازدهر في طريق الكلاسيكية الصرفة ازدهاراً مدهشاً بفضل علماء انفقوا حياتهم كلها للنهل من منابع المعرفة نفسها في المشرق ، واتخذوا فيه مستقرهم ، كالاندلسي ابن مالك ، صاحب الالفية التي تعالج موضوعات الصرف والنحو. وشاعت في شبه الجزيرة الايبيرية اسماء مازالت اسماع المشارقة تألفها حتى الآن ، منها ابن عبد ربه ، مولى الامويين في قرطبة في القرن التاسع وبداية القرن العاشر ، وكذلك ابو علي القالي ، وهو عراقي الاصل اقام في اسبانيا ، في الوقت الذي كان فيه اديباً على قدر من سعة العلم لامثيل له ، واصبح مربياً للحكم الثاني الخليفة الاندلس ، وهي صفة ذات اعتبار عظيم ، ومن اعظم تواليفه ـ كتاب في الاندلس[11].

المستعربون في الاندلس Mozarabes :

هو اعتناق اعداد غفيرة من الرعايا النصارى للاسلام المعروف عنهم بتسمية اهل الذمة (Mozarabes) اي المستعربين ، على الرغم من احتفاظ نسبة (كبيرة) من الرعايا المسيحيين التي تشكل في المدن الاندلسية وحدات مزدهرة بكنائسها واديرتها ... تحت اشراف الادارة الاموية[12]. وإن المعروف عن هؤلاء المستعربين هو شغفهم باللغة العربية وآدابها، وهذا ما يجعلنا نفترض وجود اختلاط ودي وثيق ومتصل بين مختلف عناصر السكان، وقد اضحى بذلك تأثير اللغة العربية على اللغة الاسبانية اكثر وضوحاً وسعة ، وقد شمل مختلف الطوائف المسيحية في شبه الجزيرة الايبيرية[13].

ونملك هنا شهادة معاصرة لتلك المرحلة.. وانها صادرة عن واحد من انشط المتحمسين ضد الاسلام في القرن التاسع في الاندلس ، الا وهو «الفارو القرطبي» (Alvaro Cordobes)، فبينما يحزن لجهل المسيحيين باللغة اللاتينية ، نراه يمجّد بفصاحة نادرة الثقافة الاسلامية ـ الاسبانية التي كانت في طور التكوين ، وذلك عندما كان يستشهد في مقاطع عن كتابه بعبارة «إن ابناء طائفتي يحبون قراءة الاشعار ، وتراث الخيال العربي ، وهم لايدرسون كتابات الرجال الذين يدحضونها ، وإنما يدرسونها ليكتسبوا نطقاً عربياً سليماً ورفيعاً .. وإنّ جميع الشبان المسيحيين الذين يُعبِّرون لمواهبهم لايعرفون سوى اللغة العربية وآدابها ، وانهم يقراون ويدرسون الكتب العربية بنشاط منقطع النظير.. ولقد نسي المسيحيون كل شيء حتى لغتهم الدينية ، وانك لاتكاد تعثر بيننا إلّا بجهد على واحد بالالف يعرف كما يجب ، تحرير رسالة الى صديق باللغة اللاتينية ، إما اذا كان الغرض الكتابة في العربية فانك تجد جمهرة من الاشخاص يُعبِّرون على اكمل وجه وبلباقة فائقة في هذه اللغة ، وترى انهم ينظمون اشعاراً افضل بكثير من الاشعار التي ينظمها العرب انفسهم...»[14] .

ويجب الّا يغرب عن البال عمق الاثر الذي تركه سكان شبه الجزيرة الاصليون في العصور الوسطى على الاندلس من جهتي حدودها الاسلامية ، هو ذلك الاثر الذي خلفوه في لهجاتها الدارجة في اول الامر ، لان احتكاك هؤلاء الاسبان الدائم بالعرب والبربر المستعربين، جعلهم يضطرون الى تعلم لغة الرومان، وهي الناتجة من اللهجة اللاتينية ـ الأيبيرية ، ذلك لانها كانت وسيلة التعبير الوحيدة التي سلكتها آنئذٍ الطبقات الشعبية .. وبتعبير آخر، المولدون الذين كانوا يعمّرون البقاع الزراعية، ومن ثم لانه كان على اللغة الرومانية ان تقدم للعربية ـ الاسبانية العامية ، الجزء الذي كان ينقصها من المفردات الحسّية ، واننا متأكدون من ان مسلمي اسبانيا ، كانوا في عصور الاحتلال يوجد بينهم نسبة عالية جداً تتكلم لغتين معاً ، وتستعمل بلا تمييز العربية والرومانية بذات الاهمية..

ولاجرم ان المسلمين الجدد كانوا يشكلون في هذه النسبة التي تتكلم لغتين ، الجمهورة الرئيسة غير ان العرب الاقحاح انفسهم يبدو انهم لم يانفوا من استعمال الرومانية في احاديثهم الخاصة ، منذ ان كان نفوذ لغتهم الكتابية مازال على حاله ، لم يعتره فيه ، وذلك على كل مستويات المجتمع وحتى في مجالس منازل الخليفة نفسها . اما عن تغلغل الرومانية في العربية العامية في شبه الجزيرة فان لدينا على ذلك شهادة لاتدحض : انها مدونة في المعاجم العربية - اللاتينية او العربية - القشتالية التي وضعت في اسبانيا في العصور الوسطى ، وكذلك في الكلمات الكثيرة المتبقية من اصل روماني التي يمكن ان يحصيها في التعابير العربية في شمال مراكش والمدن الكبرى ذات التقليد الاسباني ، مثل فاس وتطوان وطنجة . وهناك الاثر الذي خلفته اللغة الرومانية في تكوين اللهجات التي تكلمها المسلمون في شبه الجزيرة بعد ان تأثرت بالطابع التعابير الدينية المسيحية التي هي نفسها عربية صرفة ، ومع ذلك، لم تفرض هذه اللغة اي الرومانية على مسلمي شبه الجزيرة كلمات كثيرة لتحل محل اللغة المماثلة فحسب ، وإنما فرضت ايضاً خواص في نوعية تركيب الكلمات واشتقاقها ، وقد كثر استعمالها ، كالتعابير العربية الصرفة او كالتعابير التي تعربت منذ زمن طويل: منها اواخر اسماء الفاعل واسماء التصغير المطابقة لاواخر الكلمات الرومانية ero-ello ، وهكذا كان يقال مثلاً في الاسبانية - العربية لمن يتولى ادارة الفندق بالكلمة ([illegible]) من ([illegible]) للدلالة على من يتولى ادارة «الفندق» وكذلك ([illegible]) من (Hara) للدلالة على معنى: حي او (حارة)...

وان دراسة هذه الاستعارات الاخيرة التي تنضح القشتالية والبرتغالية والقطلونية ، وهي اللغات القومية الحالية في شبه الجزيرة عبيراً من العربية جد نافذ ومدعاة للبحث .. وانها تكتسب طابع الاهمية الخاصة ، فهي تقدم الدليل الضمني ، الذي لاجدال فيه ، على الاثر العميق الذي مارسته الثقافة العربية الاندلسية على السكان المسيحيين في الكتلة الايبيرية بكاملها . هذا وإن اللغة الاسبانية قد انبثقت من حيث جوهرها من اللهجات الايبيرية - اللاتينية التي كانت تشكل الرومانية - الاسبانية ، وبدون ان نذهب الى ابعد حدود التبسيط في طرح المسألة المعقدة لاصل اللغة الاسبانية ، فاننا نستطيع - على كل حال - التحقق من انها وجدت نفسها مضطرة طوال مرحلة نموها ، وحتى القرن الحادي عشر في الاقل ، الى ان تاخذ من العربية كل ماكان ينقصها حتى ذلك الوقت للتعبير عن المفاهيم الجديدة، سيما في مضمار المؤسسات والحياة الخاصة ، والتحقق من هذا غني بالمعلومات بصورة فريدة .

وفي الوقت نفسه، إذا القينا نظرة على اصطلاحات التنظيم المدني او العسكري لدى اسبانيا في العصور الوسطى او في العصر الحديث ، فاننا نكتشف فيها عدداً ضخماً من المفردات ذات الاصل العربي : ففي مراتب الجيش يطلق مثلاً رتبة الملازم حتى الآن (ALférez) وهي الكلمة العربية الفارس ، والطلائع هي في الاسبانية (Atayla) والتي تعني الطليعة بالعربية ، والمؤخرة (Zaga) وهي الساقة من العربية، ومازالت مفردات التحصين جميعها تقريباً هي نفسها التي كانت متداولة في العصر الاسلامي ، والى جانب ذلك فان العربية تحتل في تعابير البناء التقنية مكاناً كبيراً فالمعماري يسمى (Albañil) من الكلمة العربية: البنّاء ، والآجر اي الطوب من العربية (Adobe) ، كما لايقل اثر اللغة العربية وضوحاً في مؤسسات الدولة ، فالضرائب تسمى (Alcabala) وهي بالعربية تعني الغرامة وبالاسبانية (Alfaquin) ، كما يُطلق على شيخ الجماعة حتى الوقت الحاضر (ALcalde) وهي من الكلمة العربية: القاضي ، وقد استعمل نصارى اسبانيا الكلمات التي تدل على المناصب المدنية كمعنى : صاحب المدينة (Zalmedina) ، وصاحب الشرطة (Zavasorda) ، وظل رئيس التجار في شبه الجزيرة الايبيرية يدعى زمناً طويلاً (ALmotacén) وهي من العربية المحتسب . وإذا تعمقنا اكثر في هذه الاستقصاءات حتى تشمل مفردات الحياة اليومية ، لاصبحت اسهاباً طويلاً ، بل من المحتمل ان تصبح مملة ، لذلك سنقتصر على الاشارة الى الانواع المتعلقة بعناصر اللغة والتي ترتبط بها غالبية تلك الاستعارات، إلا اننا قبل ان نذكر ذلك، نود ان نشير الى نصيب اللغة العربية الكبير في مصادر اسماء الاماكن الراهنة في اسبانيا اليوم ، ولاسيما في جنوب شبه الجزيرة هذه التي اكتسحت التسميات الايبيرية القديمة ثم حذفتها، والشيء نفسه بالنسبة لاسماء الانهار مثل الوادي الكبير (Guadalquivir) او الوادي الابيض (Guadalaviar) واسماء

الحصون ، مثل: المُدَوَّر (Almodavar) او حصن الحجر (Iznajar) . وفي اسماء المدن مثل مدينة سليم (Medinaceli) وقلعة ايوب (Calatayud) ، او البسيط ALbacete) . هذا ومازالت العربية باقية حتى الآن ، في لغة الريف الصميمية في مفردات كثير من المصطلحات الزراعية . وكذلك فيما يتعلق بالري والسقاية . ومازالت ارض الاقاليم الشرقية في اسبانيابفضل تلك الطرائق في الري ، كما كان الامر في العهد الاسلامي في اسبانيا ، وهذا لايعني ان اصطلاحات الري ليست عربية ، فهي عربية صرفة ماعدا بعض الشواذ النادرة وذلك ابتداء من كلمة (Noria) وهي: الناعورة بالعربية ، وانتقلت من الاسبانية الى الفرنسية ، وكذلك الحال في المفردات الخاصة بصيد البحر ، لاسيما إذا كانت ممارسة هذا الصيد بواسطة الشباك او المضربة بالعربية (Madragues) ، والتي انتقلت من الاسبانية الى الفرنسية ايضاً. وإن ما تقره معاجم علم النبات من الالفاظ العربية لايقل نسبة عن العلوم الاخرى . فاكثرية اسماء الفاكهة ، والازهار المنزرعة تشهد حتى الآن في اسبانيا على استعارة مباشرة من اللغة العربية، وهي بدورها قد انتقل عددٌ كبيرٌ منها اي من هذه الاسماء الى المفردات الفرنسية عبرَ البيرينية: مثل المشمش (برقوق) (abricot) . الزعرور (azerole) وتكتب بالاسبانية بهذه الطريقة (acerole) ، والياسمين: (jasmin) ، والقطن: (Coton) ، والزعفران (Zafaran) والزيتون (acetuna) ، والزيت (aceite) .

وتدين اللغة الفرنسية بطريق الاسبانية الى العربية بعدد من اسماء الالوان المشتقة عن اسماء الازهار والفاكهة مثل: ازرق (azur) ، قرمزي:(Carmaiale) ، شقائقي (ecarlate) ولهذه الكلمة الاخيرة مصير جد غريب ، بما ان الكلمة التي تقابلها في العربية ـ الاسبانية قد جاءت على الارجح هي ايضاً من العبارة اللاتينية ، ونحن نعلم ان اللون الشقائقي ، كان يعني في الاصل قماشاً من الحرير ثم نقل فن صناعته إلى اسبانيا من العراق في القرن التاسع . وتكاد اسماء الاقمشة في الاندلس الاسلامية تكون كلها على حد سواء اسماء عربية او تكون بالتالي على علاقة بالمدن الصناعية في الشرق ، حيث ازدهرت صناعتها . وقد دخلت غالبية هذه الاسماء الى الاسبانية في العصور الوسطى .

وإذا كان لم يبق منها حتى الآن إلّا نسبة صغيرة ، فما ذلك إلّا لان الاذواق قد تغيرت ، ولان الاقمشة الحريرية القيمّة التي كانت ذات شهرة فائقة في اوروبا منذ عشرة قرون قد تبدلت منذ زمن طويل ، وحينذاك كانت مفردات زينة الرأس والملابس والإحذية كلها عربية ايضاً على وجه التقريب ، وليس على المرء حتى يتأكد من صحة ذلك إلّا ان يقلب الوثائق المحفوظة عن ذلك العصر ، ولاسيما عقود الزواج، فقد كانت ثياب السيدات المسيحية تزدان بانواع غنية من الملابس العراقية مثل: الجُبّة (Algubas) ، و(adorra) اي الدرّة ، وهي الجبّة المزررة ، والملحاف (alifafes) ، والفراء المُبطّن(Mobatanas) والنسيج الحريري الموشى الطراز (altiraz) .

وكذلك فان المجوهرات كانت تحمل في اسمائها طابع التأثير العربي[19] . ويبدو لنا من ذلك إنه لاداعي الى مزيد من التنوير حول الاهمية الإجتماعية المرتبطة بهذه الاستعارات جميعها ، وإن جمعها وتصنيفها يوضّح مكانة هذه الظاهرة اللغوية البالغة الإهمية، ناهيك عن مدى الإشعاع الحضاري الحقيقي الذي نشرته اسبانياالعربية على اسبانيا والبلاد المجاورة. وعلى نحو مشابه لاشعاع صقلية العربية ثم صقلية العربية ـ النورماندية التي بدورها نشرته على ايطاليا . ولقد امتد شعاع الثقافة الاندلسية ، باسطاً خيوطه على جميع اجزاء شبه الجزيرة الايبيرية .

ولقد شجع ملوك ارغونا وقشتالة هذا الإشعاع ايضاً بأن تبنوا هم انفسهم وفي احتفالات بلاطاتهم ، شتى المبتكرات المستقاة من الحضارة المجاورة مباشرة ، وإن قيام بعض عواهل اسبانيا بضرب عملات ذات وجهين عربي وقشتالي امرٌ كثير الوقوع[20].

ويؤكد سانچث آلبورنوص Sanchez ALbornoz بقوله: «لم تستعمل الممالك المسيحية ابداً مدة تقارب من ٤٠٠ سنة ، سوى العملات العربية والفرنجية ، وبقي ملوك قشتالة بعد ذلك مايقرب من قرن كامل حتى ضربوا عملة ذهبية. وكان تقليد العملات الفرنجية والعربية يجري بأمانة ، سواء من اجل ضرب القطع الفضية في اواخر القرن الحادي عشر أم من اجل صك العملات الذهبية في الثلث الاخير من القرن الثاني عشر[21].

ولقد ذُكر ان السيد Cid استعرب الى درجة لابأس بها في حياة الأمارة والمدينة متأثراً بمفاتن الحضارة الاسلامية

الاندلسية عندما كان في اواخر حياته ، يسيطر على فلانسيا لاينازعه في السيادة عليها أحـد ؛ وذلك على اثـر الغزوات الكثيـرة التي وجّهها طوال حيـاته لصـالح بعض الامـراء المسلمين او ضد هـؤلاء الأمراء انفسهم عـلى حدٍ سـواء ، ولاتقل حالة فرديناند الثالث غـرابة عن ذلك ، وكـذا حالة الفونس العالم . وقد ابدى مسلم من مسلمي قرطبة ، استقر في طليطلة قبل هذا التاريخ بزمن طويل ، عجبه من مقابلة جرت له مع الكونت سانشو القشتالي المتوفي عام ١٠١٧ م ، وهو يروي ذلك للمؤرخ ابن حيان: «عندما وصلنا الى خيمته وجدناه جالساً على دكة منجدّة بالفرش تنجيداً كاملاً ، مرتدياً على الطريقة الاسلامية ، كان حاسر الراس فقط. فكل هؤلاء الذين يقاتلون من اجل استرداد اسبانيا من العرب، نراهم لايقلّون عن غيرهم اعجاباً بحضارة اعـدائهم السياسيـين التقليديين ، فقد كانوا يعترفون بكل ما كانت بلادهم ذاتها تدين به الى الحضارة العربية الإسلامية[٢٢] .

الهوامش

١ ـ ذنون طه ، ص : ٩ ـ ١٠ .
٢ ـ عدلي طاهر ، ص : أ ـ ب ؛ Lapesa,p. 135, Corominas, p.44
٣ ـ الكزبري ، ص : ١٥٥ .
٤ ـ المصدر السابق نفسه ص : ١٥٥ ـ ١٥٦ .
٥ ـ المصدر السابق نفسه ص : ١٥٦ .
٦ ـ عدلي طاهر ، ص : ١٣٤ ؛ Corominas, P. 44; Lapesa, p. 139
٧ ـ الكزبري ص : ١٥٦ .
٨ ـ المصدر السابق نفسه ص : ١٥٦ .
٩ ـ المصدر السابق نفسه ص : ١٥٦ .
١٠ ـ المصدر السابق نفسه ص : ١٥٦ ـ ١٥٧ .
١١ ـ بروفنسال ، ص : ٦٣.
١٢ ـ المصدر السابق نفسه ص : ٧٩ ـ ٨٠.
١٣ ـ المصدر السابق نفسه ص : ٨٠ .
١٤ ـ المصدر السابق نفسه ص : ٨٠ .
١٥ ـ المصدر السابق نفسه ص : ٨٦ ـ ٨٧ .
١٦ ـ المصدر السابق نفسه ص : ٨٧ .
١٧ ـ المصدر السابق نفسه ص : ٨٨ .
١٨ ـ المصدر السابق نفسه ص : ٨٩ ـ ٩٠.
١٩ ـ Palencia ، بروفنسال ، ص : ٩٠ ـ ٩٢ .
٢٠ ـ بروفنسال ، ص : ٩٣ ـ ٩٤.
٢١ ـ Sanchez ، ص : ١٠ ؛ بروفنسال ، ص : ١٧٣ .
٢٢ ـ بروفنسال ، ص : ٩٤ .

مراجع البحث

(١) عدلي طاهر نور ، كلمات عربية في اللغة الاسبانية ـ الطبعة الاولى ١٩٧١ ـ دار النشر للجامعات المصرية .
(٢) سامي الحفار الكزبري (مقالة) ـ دمشق ..
(٣) ليفي بـروفنسال ـ حضـارة العرب في الانـدلس ـ ترجمـة ذوقـان قرقوط ـ بيروت .
(4) A. Gonzalez Palacia,, AL—Islam y Occidente.
(5) CL. Sanchez— ALbornoz, Espana y AL — Islam.
(٦) د. عبدالواحد ذنـون طه ، دراسات انـدلسية ، المجمـوعة الاولى ١٩٨٦ .
(٧) الموجز في الادب العربي وتاريخه، الادب في الاندلس والمغرب (وضع لجنة من الاساتذة بالاقطار العربية) طبع دار المعارف.
(٨) رينهارت دوزي ـ قاموس الكلمات الاسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية ـ الطبعة الثانية ١٨٦٩ .
(9) Juan Corominas (Breve) Diccionario Etimologico— de La Lengua Castellana, Tercer Edicion— Madrid, 1973.
(10) Diccionario, F. Corriente— Espanol—Arabe 1970
(11)Rafael Lapesa, Historia de La lengua Espanola, Octava edicion, Madrid, 198.